مقامات بديع الزمان الهمذاني النشأة والمؤثرات

د.المهدي مأمون أبشر

مدخل:

يهدف هذا البحث إلى مناقشة الآراء التي دارت حول نشأة المقامة وأصولها ومصادرها ومخترعها وكانت هذه الموضوعات من أكبر القضايا التي شغل بها دارسو الأدب العربي قديماً، وحديثاً ؛ وهم يتساءلون أكان هذا الفن عربياً خالصاً أم أنه نبع من أصولٍ ومصادر فارسية كانت أم غيرها، وهل كان بديع الزمان الهمذاني هو من اخترع المقامات حقا أم أن هناك من سبقه إلى إبداع هذا الفن ؟ وما هي المؤثرات التي كان لها دورها في نشأته ؟. هذا ما حاول البحث الإجابة عنه.

اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي إلى جانب المنهج التاريخي والمقارن.

تعريف:

المقامة بالفتح في لسان العرب: المجلس والجماعة من الناس وفي القاموس المحيط: والمقامة المجلس والقوم [1]، ومنه قول لبيد:

ومقامة غلب الرقاب كأنهم *** جنٌ لدى باب الحصير قيام

والجمع مقامات، وأنشد ابن بري لزهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم *** وأندية ينتابها القول والفعل

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم *** مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل [2]

ويفهم من بيت زهير أن العرب في الجاهلية قد استعملت الكلمة بمعنى المجلس ثم توسعوا – كما يرى – شوقي ضيف في معنى الكلمة فأصبحوا يطلقونها على خطبهم وأحاديثهم التي يقولونها في مجالسهم، واستمرت الكلمة تدل على المعنيين حتى عصر بديع الزمان نفسه، إذ نجده يستخدمها في رسائله بمعنى المجالس كما استخدمها الثعالبي بالمعنى نفسه [3].

والمقامة لفظ مشتق من قام، وهو اسم مكان القيام، ثم توسع فيه حتى أطلق على كل ما يقال في هذه المقامة – أي المجلس – من كلمة أو خطبة، وكل

حديث أدبي "مقامة"، ثم تطور مدلول هذا اللفظ حتى أصبح مصطلحً خاصاً يطلق على حكاية أو أقصوصة لها أبطال معينون وخصائص أدبية ثابتة [4].

وقد استعمل هذه اللفظة بمعانٍ مختلفة الجاحظ، وابن قتيبة، وابن عبد ربه والمسعودي، وأبو علي القالي ؛ ورغم تباين هذه الاستعمالات فإنها لم تخرج عن المدلولات التي أشرنا إليها [5]

ووردت كلمة مقامات عند الجاحظ بمعنى محاضرات عندما تحدث عن عبد النور كاتب إبراهيم بن عبد الله أبي الحسن وقد استخفى بالبصرة في عبد قيس خوفاً من أمير المؤمنين أبي جعفر. وصف عبد النور مجلس القوم فقال:

((وكانوا يفيضون في الحديث، ويذكرون من الشعراء الشاهد والمثل، ومن الخبر الأيام والمقامات)) [6].

وورد في بعض المراجع الأجنبية أن كلمة مقامات جاءت في مروج الذهب للمسعودي بمعنى محاضرات. والنص يتحدث عن عمر بن عبد العزيز قائلا:((وخطب في بعض مقاماته فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أيها الناس لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ألا وإني لست بقاض ولكن مقتد، ألا وإني لست بمبتدع ولكن متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ، ولكن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))[7].

ويبدوا أن المقامة هنا ليست بمعنى محاضرة كما فهمها محررو مادة "مقامة" في دائرة المعارف الإسلامية، والأنسب أن تكون بمعنى موعظة [8].

وكانت كلمة مقامة تطلق على المجالس التي يستقبل فيها الخلفاء الأمويون والعباسيون رجال التقوى للاستماع إليهم في الموعظة[9]. فالمقامة هنا تحمل معنيين معنى المجلس ومعنى الموعظة [10].

وهناك كلمة مقامات ومفردها مقام، وقد يكون معناها " مكانة " ويفسر ذلك بعض الأخبار التي ذكرها ابن عبد ربه في العقد الفريد، ومنها:((دخل عبد الله ابن عباس على معاوية وعنده زياد، فرحب به معاوية ووسع له إلى جنبه وأقبل يحادثه، وزياد ساكت فقال له ابن عباس: كيف حالك أبا المغيرة ؟ كأنك أردت أن تحدث بينك وبيننا هجرة. فقال: لا ولكن لا يسلم على قادم في حضرة أمير

المؤمنين))[11]. ومعنى ذلك أن السلام على الناس في حضرة الملوك لا يتفق ومقام الملوك، وأغلب الظن أن المقام هنا بمعنى مكانة وفي القرآن الكريم: {عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً } [12]. وفي شعر لبيد:

ومقام ضيّق فرجته *** بلسانٍ وبيانٍ وجدل

وقد استعملت كلمة "مقامة" بمعنى مقام في رسائل الخوارزمي عندما قال: ((ولكل مقامٍ مقالة)) [13].

ويقول الشريشي شارح مقامات الحريري:((والمقامات والمجالس واحدتها مقامة، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلساً، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس)) [14]. وبديع الزمان نفسه يستعمل المقامة بمعنى مجلس. قال في المقامة الوعظية:((قال عيسى بن هشام: فقلت لبعض الحاضرين: من هذا؟ قال غريب قد طرأ لا أعرف شخصه فاصبر عليه إلى آخر مقامته لعله ينبئ بعلامته)) [15].

وقد ترجمت كلمة مقامات إلى الإنجليزية بمعنى مجالس Assemblies ويقول تشنري chenery مترجم مقامات الحريري:((وقد سميت المقامات بهذا الاسم لأن بطلها في مجمع من الغرباء يدهشهم ببلاغته)) [16].

ومهما يكن من أمر اللفظة وما احتملته من معان مختلفة ومدلولات متباينة في بعض الأحيان، فهي تسمية موائمة كل المواءمة لهذا الفن من فنون الكتابة أو القصة، ولا شك أن بديع الزمان هو أول مبتكر لهذه التسمية التي أطلقها على فنه [17].

ويكاد معظم الباحثين يتفقون حول هذا المعنى اللغوي لكلمة "مقامة"، فهي اسم للمجلس أو الجماعة، وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة لأنها تذكر في مجلس واحد تجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها [18]

وكلمة "مقامة" كانت تعني في العصر الجاهلي مجلس القبيلة أو ناديها، كما جاء في بيت زهير السابق:

وفيهم مقامات حسان وجوههم *** وأندية ينتابها القول والفعل

وأحياناً كانت الكلمة تتجاوز المكان إلى من يوجدون فيه، فتعنى الجماعة التي يضمها المجلس أو النادي كقول لبيد:

ومقامة غلب الرقاب كأنهم *** جن لدى باب الحصير قيام

وكلمة "غلب" جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة، والحصير: الملك [19].

وقد تطور مضمون الكلمة في العصر الإسلامي، وأصبحت تعني المجلس الذي يقوم فيه شخص بين يدي الخليفة أو غيره، ويقوم بوعظ الحاضرين، حديثاً وعظياً، وكلاما في السلوك والتهذيب وأخيراً أصبحت تعني المحاضرة سواء أكان من يقدمها قماً أو قاعداً [20].

ويتفق مؤلفو كتاب "في الأدب والنقد واللغة" مع هذا الرأي القائل بأن كلمة "مقامة" كانت تستعمل في العصر الجاهلي بمعنى: المجلس، أو القبيلة أو ناديها، وأحياناً أخرى: بمعنى الجماعة التي يضمها هذا المجلس أو النادي. ثم يأتي العصر الإسلامي لنجد أن المقامة تطلق على الحديث الذي يعظ به شخص ما الخليفة، وظهر ما يسمى بمقامات الخلفاء، ثم اتسع معناها لتعني المحاضرة التي تلقى في المجلس [21].

وجاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب تعريف المقامة بأنها ((هي في الأدب العربي قصة قصيرة مسجوعة تتضمن عظة أو ملحة أو نادرة، كان الأدباء يتبارون في كتابتها إظهاراً لما يمتازون من براعة لغوية وأدبية، وأصل معناها " المجلس" أو " الجماعة " من الناس)) [22].

ويضيف باحث آخر أن "المقامة" في الاصطلاح ((هي لون من الحكاية المسجوعة الموشاة بغريب اللفظ، ويراعى أن تكون على لسان راوية، ويكون لها غالباً بطل ثابت يقوم بمغامرات قائمة على التكدى والحيلة والبراعة [23].

وقد لاحظنا من قبل في حديثنا عن المعنى اللغوي أن كلمة "مقامة" يتغير مدلولها حسب الظروف الغالبة في كل عصر استخدمت فيه ؛ ففي العصر الجاهلي الذي يؤمن بالقبلية والطائفية كان مدلولها اجتماعياً، وعندما تغلبت النزعة الدينية إبان صدر الإسلام والدولة الأموية اتجهت المقامات اتجاهاً دينياً يهتم بالوعظ والإرشاد، وعندما تقدمت الفنون الأدبية خلال العصر العباسي الثاني، وتعددت ألوان الأدب شعره ونثره واتجه الأدب إلى التفنن والإغراق في المحسنات اتخذت المقامة مدلولاً أدبياً [24].

ولعل البديع أول من أعطى كلمة "مقامة" معناها الاصطلاحي بين الأدباء إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة، وهي– بصورة عامة – أحاديث تلقى في جماعة يضمهم مجلس وجعل لكل منها راوية وبطلاً في الغالب [25].

ويمكن أن نضيف أن المقامة بعامة قطعة أدبية قصيرة من النثر تتضمن حكاية بعض الأحداث والمغامرات يرويها راوٍ، وتقوم بها شخصية محورية.

النشأة:

يكاد مؤرخو الأدب العربي ودارسوه أن يجمعوا على أن بديع الزمان الهمذاني [26] هو مخترع هذا الفن – فن المقامات – في معناه الفني، وأعطاه هذا الاسم في العربية [27]، إذ يرى أنه عندما تعددت ألوان الأدب شعره ونثره في العصر العباسي، واتجه الأدب إلى التفنن والإغراق في المحسنات، اتخذت المقامات مدلولا أدبياً، وكان بديع الزمان الهمذاني أول من استخدم لفظ (المقامات)استخداماً يقصد به جنساً أدبياً جديداً زيد على الفنون الأدبية المتداولة. وما زال رأي الحريري هو أصح الآراء وأصدقها، فمن المقطوع به أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من ابتدع لفظ "مقامة" وهو الذي أعطاها الشكل الفني الذي جعلها تبدو جنساً أدبياً يختلف عن بقية أجناس الكتابة العربية وما زال معترفاً له بالسبق والابتكار،وسيظل اسمه مقترناً باختراع المقامات كما سيظل اسم المقامات قريناً بابتكاره وإبداعه.

وقد أشار الحريري في مقدمة مقاماته أن بديع الزمان هو مخترع المقامات إذ يقول:((فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه وخبت مصابيحه ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان رحمه الله تعالى، وعزا إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتصرف، فأشار من إشارته حكم (المراد وزير السلطان المسعود واسمه أنو شروان بن خالد، وقيل هو الخليفة وقال بعض غلام الخليفة) وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع... هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات، وأن المتصدي بعده إنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامه لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسري إلا بدلالته والله در القائل:

ونبه شوقي بعد ما كان نائماً *** هتوف الدجي مشغوفة بالترنم
بكت شجوها عند الضحى فتساجمت *** إليها دموع العين من كل مسجم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة *** بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج البكا*** بكاها فقلت الفضل للمتقدم))[28]

وقد وافق الحريري في رأيه هذا كل من تصدوا لدراسة المقامات في الأزمنة القديمة، كما وافقه معظم الباحثين في العصر الحديث ؛ ومن هؤلاء المستشرق البريطاني إدوارد براون الذي يقول:((يجب أن نذكر من كتاب العربية الممتازين الذين نشأوا في إيران ذلك الصقر البارع الذي اخترع ذلك الضرب الذي يعرف بالمقامات، ونقصد به أبا الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني الذي اشتهر ببديع الزمان)) ويقول في موضع آخر وهو يتحدث عن مقامات الحريري:((... إن بديع الهمذاني هو أول السابقين إلى ابتكار فن المقامات)) [29]. ويقول شوقي ضيف ((بديع الزمان هو الذي مهد الطريق وعبَّده لظهور هذا الفن[30]...)) كما يقول مارون عبود:((إن خطة المقامات من عمل البديع فهو الذي ألبسها هذا الطراز، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام، وعبثاً نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع)) وإلى ذلك يذهب مازن المبارك إذ يقول:((فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة في الأدب العربي)) [31].

ابن دريد والمقامات:

هكذا أجمع معظم الدارسين على أن بديع الزمان هو مخترع المقامات إلا ما كان من بعضهم ممن خالف في هذا ورد الاختراع إلى مصادر أخرى ؛ ومن هؤلاء زكى مبارك الذي يرى أن مبتكر المقامات هو ابن دريد (ت 312هـ) الذي سمى قصصه "أحاديث" في حين سماه بديع الزمان الهمذاني "مقامات". وقد اعتمد زكي مبارك في رأيه على ما ذكره الحصري القيرواني في كتابه "زهير الآداب" من أن بديع الزمان عارض ابن دريد ونسج مقاماته. ويعد الحصري أول من تعرض لهذه المسألة حينما ترجم لبديع الزمان في كتابه قائلاً :((ولما رأى أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب أربعين حديثا، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنتجها من معادن فكره وأبداها

للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض عجمية وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها، إذ حرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفاً وتفطر حسناً، ولا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافسان السحر[32].

وعلى هذا يرى زكي مبارك أن الحريري هو الذي أذاع الغلط بين الناس بأن بديع الزمان هو أول من أنشأ فن المقامات... ثم يقول زكي مبارك:((وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات وإنما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة 321هـ، وإلى القاريء النص الذي اعتمدت عليه في تحرير هذه المسألة...))، ثم ينقل زكي مبارك نص الحصري عن ابن دريد وأحاديثه ويقول:((وعندي أنَّ من أسباب غفلة مؤرخي الأدب عن كشف هذا الخطأ أنَّ ابن دريد سمَّى قصصه "أحاديث" ولم يكن أحد تنبه إلى قيمة النص الذي نقلته آنفاً عن زهر الآداب...)) ويرى زكي مبارك أن بديع الزمان عارض بمقاماته أربعين حديثاً أنشأها ابن دريد،والمعارضات كانت تتقارب دائماً في الكمية[33].

ولم يجزم بروكلمان بتأثير ابن دريد في نشأة المقامات من خلال أحاديثه وعزا بروكلمان توقفه في عدم قبول هذا الرأي إلى أنَّ كتاب "أحاديث ابن دريد" لم يصل إلينا، غير أنه يضيف شخصية أخرى ربما يكون لها السبق في اختراع المقامات، وذلك حين يقول:((وبديع الزمان مبتكر فن المقامات في الأدب العربي، إذا لم يكن منافسه الخوارزمي هو الذي سبق إلى ذلك...)) [34].

ويرى محمد مسعود جبران أنَّ ((المقامة فن من الفنون النثرية المتميزة بمحتواها وإطارها، استحدث في القرن الرابع الهجري على يد ابن دريد (223-321هـ) ثم تأصل على يد بديع الزمان الهمذاني وتلميذه أبي القاسم محمد الحريري)) [35].

ولا يقبل بعض الباحثين هذا الرأي، ويقولون إنَّ بديع الزمان لم يقلد أحاديث ابن دريد، حتى ولو كان قد تأثر به،وحتى لو كانت مقاماته قد كتبت معارضةً

أحاديث ابن دريد كما يقول بعضهم، وذلك لأن أحاديث ابن دريد كانت مجرد أحاديث تخلو من الصورة الحوارية التي تبدو واضحة في مقامات بديع الزمان كما أن أحاديث ابن دريد كانت تتسم بغرابة الألفاظ وجفافها، وكذلك خلوها من البناء الفني الذي تجسده المقامة، أضف إلى ذلك ما قاله بعض الدارسين بأنَّ بديع الزمان لم ير أحاديث ابن دريد، كما أنَّ كلمة "مقامة" من ابتكار بديع الزمان، في حين أن ابن دريد استعمل كلمة "حديث"[36].

وإذا كان هناك لقاء بين بعض أفكار ابن دريد في أحاديثه، وبعض أفكار بديع الزمان في مقاماته ؛ فقد كان اللقاء شائعاً بين كتاب وشعراء القرن الرابع الهجري في أفكارهم وفكاهاتهم ونوادرهم، وبالتالي فإن لقاء بديع الزمان مع ابن دريد لا يختلف عن لقاء بديع الزمان مع الأصفهاني في نوادره، أو مع الجاحظ في بخلائه، أو مع ابن قتيبة، أو مع ابن فارس... أو مع غيرهم من كبار الأدباء في انتاجهم[37].

ويقول شوقي ضيف:((على أنه ينبغي أن نلاحظ أن أحاديث ابن دريد تخالف مقامات الهمذاني في موضوعها، إذ أن ما رواه له القالي في كتابه الأمالي منها يدور غالباً حول حكايات عربية قديمة، للتاريخ والحب فيها نصيب بينما أقاصيص بديع الزمان تدور حول التسول والكدية، ومع ذلك فالعلاقة بين العمليين واضحة أولاً من حيث الاسم فإن من معاني كلمة "مقامة" التي اختارها بديع الزمان لقصصه "حديثاً" وتجمع على أحاديث وهو نفس الاسم الذي اقترحه ابن دريد لأقاصيصه،وثانياً من حيث الغاية فأحاديث ابن دريد ومقامات بديع الزمان ألفتا لغاية واحدة هي تعليم الناشئة اللغة)) [38].

ومع إشارة شوقي ضيف من أنَّ أوجه الاختلاف بين ابن دريد وبديع الزمان أن مقامات البديع تدور حول الكدية، فقد اتخذ باحثون آخرون هذا على أنه من السمات والخصائص التي نجدها في أحاديث ابن دريد الأربعين ثم ظهرت فيما بعد في مقامات بديع الزمان،خصوصاً ما تعلق منها بأدب الكدية، حيث كان يحتال بعض الناس للحصول على الرزق. وقد أورد ابن دريد خطبة لأعرابي في مسجد زعم فيها أنه من علية القوم ومن الدعاة والمحافظين على الدين، وما

غادر المجلس حتى امتلأ وفاضه بالمال. من هنا يرى هؤلاء الباحثون أن البذرة الأولى لفن المقامة تتمثل في تلك الأحاديث لابن دريد [39].

ويرى مصطفى الشكعة أنه يجب علينا أن نقبل هذا الكلام – أي صلة المقامات بأحاديث ابن دريد – بتحفظ شديد، إذ انه من الظلم لبديع الزمان أن نلصق به هذه الفكرة، فالهدف والدافع يختلف عند كل واحدٍ من الآخر فأحاديث ابن دريد كان هدفها تعليمياً صرفاً إذ كانت ترمي إلى تعليم الناشئة اللغة وأصولها من خلال هذه الأحاديث الحوشية المليئة بالغريب، في حين أنَّ مقامات البديع كانت إلى جانب الإنشاء الجميل ترمي إلى الإطراف المضحك كما كانت تتخذ موضوعات بعينها من مدح وكدية، ووعظ، في صيغة مسبوكة النسج والهيكل مربوطة العقد، مبسوطة العرض. وقد اعترف زكي مبارك بهذا – كما يقول الشكعة – في معرض حديثه عن المقامة المضيرية، والمقامة البغدادية لبديع الزمان فذكر أنها نماذج من القصة القصيرة فيها العقدة وتحليل الشخصيات، ولا كذلك أحاديث ابن دريد التي تقصر أحياناً فلا تكاد تتجاوز سطوراً أربعة،وتطول أحياناً أخرى فتستغرق صفحة كاملة،وأحياناً أخرى لا تحوي إلا شعراً [40].

ولا شك أن ((أحاديث ابن دريد كانت ذات مقصد واحد هو التلقين اللغوي دون أي اعتبار آخر، وليس فيها من الفن القصصي إلا خيال خاطف في بعضها. وبشيء من التساهل يمكننا أن نقول إنها كانت إحدى الملهمات الكثيرة التي ألهمت بديع الزمان مقاماته، وليست هي كل شيء في أصول المقامات كما ذكر الحصري في زهر الآداب، وأيده في ذلك الدكتور زكي مبارك في كتابه "النثر الفني" [41].

وممن يرى أن بديع الزمان قد تأثر في اختراع مقاماته بأحاديث ابن دريد أنيس المقدسي الذي يقول متحدثاً عن المقامات: ((وهو فن كان البادئ فيه بديع الزمان الهمذاني (المتوفى سنة 398 هـ)،فوضع نحو خمسين مقامة يعارض فيها أحاديث ابن دريد [42])).

ولم يفصل المقدسي كثيرا في الحديث عن هذا الموضوع.

وهناك من الباحثين من يجعل أحاديث ابن دريد لُحداً المصادر التي استقى منها بديع الزمان مما كان له الأثر في اختراع مقاماته، فيذكرون عدة مؤشرات أخر. فهم يرون أنه قد وردت عدة مظاهر تقترب من المقامة منها مقامات الزهاد عند الملوك التي وردت في كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة (ت.276هـ)، وأحاديث ابن دريد (ت.331هـ) التي سماها " أحاديث" ووردت في أمالي القالي (ت. 351هـ)، وفيها أحاديث عن الكدية، ثم أحاديث ابن خالويه[43].

ومن الباحثين من يضيف إلى ذلك مؤشرات أجنبية وعربية أخرى إلى جانب أحاديث ابن دريد، فالتمسوا أصول المقامات لدى الفرس، ومنهم من التمس تلك الأصول في أحاديث المكدين (المتسولين)، وفي أحاديث الجاحظ مثل حديث خالد بن يزيد (وصيته لابنه) حيث يعتقد بعض الباحثين أن شخصية خالد بن يزيد هي بعينها شخصية أبي الفتح الإسكندري، فهي شخصية محترفة للكدية استطاع الجاحظ أن ينفذ إلى دقائقها وسماتها، وأما البديع فإنه انتزع هذه الصورة نفسها فيما يرى عبد الملك مرتاض من خالد بن يزيد ليضعها لبطل مقاماته أبي الفتح الإسكندري، ولذلك يبو الهمذاني مديناً للجاحظ في ذلك[44]

ويتحدث باحث آخر عن أثر النماذج الإنسانية في مقامات بديع الزمان الهمذاني فيشير إلى تأثره بكتاب البخلاء، ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ وحكاية أبي القاسم البغدادي لأبي مظهر الأزدي، ورسائل إخوان الصفاء ويتحدث عن أثر ابن فارس ومقامات الزهاد ولا يكتفي بذلك بل يلتمس أسباباً موضوعية في العصر العباسي، وفي نمط الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية أدت إلى ذلك، ولا يتسع المجال لمناقشة ما جاء في هذا الموضوع [45].

ويقول جمال الدين الغيطاني في مقدمته لمقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني بشرح الشيخ محمد عبده ما نصه: (إنَّ ما أراه هو أن المقامات فن قصصي قائم بذاته، أصوله في التراث العربي القديم،بدءاً من حكايات السمار والقصص المرتبطة بالأمثال العربية، وحتى أدب المحتالين عند الجاحظ وبرغم حبي لبديع الزمان ومعايشتي لما وصلنا من آثاره، فإنني لا أعتقد أنه أنشأ المقامات من فراغ ؛ فالأشكال الفنية لا تنشأ في المطلق حتى أحاديث ابن دريد

التي سبقته والتي يقال إن البديع أنشأ المقامات لمعارضتها تستند إلى أشكال قصصية أقدم))[46].

ويؤكد باحثون آخرون على أن بديع الزمان الهمذاني هو مخترع فن المقامات، وإن كان قد سبقت بديع الزمان أحاديث ابن دريد التي تقوم على (القصص) والسجع، ومقالات الجاحظ في وصف البخلاء ومجالسهم. وكما أن الهمذاني عاصر بروز جماعة من أهل الكدية (والكدية هي حرفة السائل الملح في الطلب والاستعطاء)، وكانوا يعرفون بالساسانيين نسبة إلى ساسان والأغلب أن ساسان هذا شخصية أسطورية زعموا أنه يتصل نسبه بنسب ملوك الفرس الساسانيين ذهب عنه ملكه فهام في الأرض محترفا الكدية [47].

تأثير ابن فارس:

ويضيف ملك الشعراء محمد تقي بهار رأياً آخر في نشأة المقامات فيقول في كتابه "سبك شناسي" ما ترجمته:

ذكر بعضهم أن بديع الزمان قلد في مقاماته أستاذه أبا الحسن أحمد بن فارس (المتوفى عام 395هـ)، ولكن لم يصل إلينا أي شيء من مقامات هذا الأستاذ حتى نحكم على صحة هذا الرأي من عدمه [48].

ويؤيد هذا الرأي محمد مسعود جبران إذ يقول: ((ويمكن الارتياح إلى القول إن ابن فارس (329 هـ / 395هـ) هو مخترع المقامات في الأدب العربي، فقد كتب – كما قرر الدارسون - جملة من المقامات ضاعت في طوايا الزمان ولكن تلميذه بديع الزمان الهمذاني الذي اطلع عليها، وأعجب بها قد أفاد منها – دون شك – وكتب على منوالها مقاماته التي قيل إنها بلغت الأربعمائة مقامة لم يصلنا منها إلا خمسون ونيف، وهي " المقامات الهمذانية " التي اشتهر بها وعرف إلى أن اعتقد – لتلاشي مقامات أستاذه ابن فارس – أنه أول المنشئين والمبدعين لفنها، كما يلوح من قول أبي القاسم الحريري (516/446هـ) أحد أكبر كتاب فن المقامات بعد بديع الزمان [49].

ويقارن محمد مسعود بين الهمذاني وشيخه ابن فارس في ظروف حياتهما ومعيشتهما مشيراً إلى العوامل التي كان لها تأثيرها على حياة البديع وعلى أدبه،فيضيف قائلاً : ((لقد كانت مقامات بديع الزمان الهمذاني مجلى لحياته

البائسة التي كان يحياها ولأسفاره التي كان يقوم بها، وهي أشبه بحياة شيخه ابن فارس التي اجتمعت فيها بعض الأطوار: الرحلة والخصاصة. لقد عمق غربة البديع وبؤسه وضياعه أنه عربي تقلب في وسط فارسي، وأنه انحاز إلى المذهب السني في بيئة سيطر عليها المذهب الشيعي، كما تأثر في تصويره بحياة البائسين وأهل الفلاكة ممن كان يراهم في حله وترحاله، وبالنماذج التي اطلع عليها في كتب الجاحظ كالبخلاء ورسالة التربيع والتدوير، وحكاية أبي القاسم البغدادي، ورسائل إخوان الصفا وبمشاهدة المكدين من الساسانيين والغجر الذين اتخذوا الكدية والتحيل لكسب العيش طريقة وفناً)). ومن ثم فقد انبنت مقاماته التي – ذكرنا أنها أول النصوص النثرية الفنية في هذا اللون – على الكدية، التي اتخذ لها راوية وهو "عيسى بن هشام"وبطلاً وهو أبو الفتح الإسكندري ((ليذكر تحيله بل تحيل المكدين في زمنه بطروق الليل أو بتغير الأحوال مع كثرة العيال، في معرض قصصي يملأه الكاتب بالبراعة الأسلوبية التي تبين عن ملكته اللسانية من جهة، وتستدر عطف الناس على بطله المغترب بالرغم من فصاحة لسانه،وروعة بيانه من جهة أخرى))[50].

الشاعر أبو دلف الخزرجي:

ويضيف محمد غنيمي هلال مصدراً آخر لمقامات بديع الزمان، فهو بعد أن يقرر أن أول من اخترع المقامات في معناها الفني، وأعطاها هذا الإسم في العربية هو بديع الزمان الهمذاني، (المتوفي عام 398 هـ) يشير إلى أنه متأثر في اختراعه بنموذج واقعي لمقاماته هو الشاعر((أبو دلف الخرزجي الينبوعي مسعد بن مهلهل)) وهو معاصر لبديع الزمان. وقد كان مثال الجوال جواب الآفاق المحتال على كسب الرزق بالأدب والشعر والحيل الأخرى الكثيرة التي تنبو عن الخلق الكريم. وكان بديع الزمان يعجب به، ويستدعيه إلى مجلسه ويحسن إليه، ويحفظ من شعره، وقد ضمت مقاماته بعض شعره، مثل هذين البيتين من قول أبي دلف:

ويحك هذا الزمان زور *** فلا يغرنك الغرور
لا تلتزم حالة، ولكن *** در بالليالي كما تدور

ضمنها بديع الزمان مقامته القريضية[51]. وللشاعر المذكور قصيدة طويلة تسمى "القصيدة الساسانية" يفاخر فيها بمهنة التسول في لهجة ساخرة، ولغة تشف عن أسى من عانى واقع الحياة الأليم. ومن هذه القصيدة:

تعـــريت كغصن البـا *** ن بين الورق والخضر
وشـــاهدت أعـــاجيبا *** وألواناً مـــن الـــدهـــــر
فطابت بالنوى نفسي *** على الإمـــساك والفطر
على أني من القوم الب *** هاليـــل بـــنـــي الـــــغر
بني ساسان والحامي ال *** حمى في سالف العصر
فنحن الناس كل الـــنا *** س في البر وفي البحر
أخذنا جـــزية الـــخلق *** من الصين إلى مصر
إلى طنجة بل في كل *** (م) أرض خيلنا تسري
لنا الدنيا بما فـــيـــها *** من الإســـــــــلام والكفر
فنصطاف على الثلـج *** ونشتو بـــلد الـــــــتمر
فظل الـــــبر يرميـــنا *** نوى بطـــناً إلى ظهـــــر
كما قد تفصل الـــريح *** بكثب الرمل في الـــــــبر
وقـد يكتسب الـــخبز *** بمـــكـــروه من الأمـــــر
ألا إنـــي حلبت الدهـــ *** ر من شطر إلى شـــــطر
وللغربة فـــي الحـــر *** فعال الـــــــنار في التبر
وما عيش الفتـى إلا *** كحال الـــمد والـــــــجزر
فبعض منـه للخيـر *** وبعض منـــــــه للـــشر
فإن لمت على الـــغر *** بـــة مثلي فاســـمعن عـــذري[52]

ولا شك أن هذه القصيدة قد أمدت بديع الزمان بالمادة الغفل لأكثر مقاماته، كما أن " أبا دلف " هذا صورة نفسية واضحة لبطل مقامات بديع الزمان "أبي الفتح"[53].

الأحنف العكبري:

وكان إلى جانب أبي دلف شاعر آخر، وكان مثل أبي دلف يتكسب بشعره، وكان مكديا، وهو الشاعر الأحنف العكبري، الذي وصف بأنه آدب بني ساسان في بغداد.

وقد اشتهر بالظرف والشعر الرقيق في الحرفة الساسانية، وله قصيدة طويلة في الكدية، منها:

على أني بحمد اللـــ *** ـه في بيت من المجد
بإخواني بني ساسا *** ن أهـل الـحِد والجَـد
لهم أرض خراسـا *** ن فقاشان إلى الهـــند
إلى الروم إلى الزنج *** إلى البلغار والـــسند
إذا ما أعوز الـطرق *** على الـــطراق والـجند
حذاراً من أعاديـــهم *** من الأعـــــراب والكرد
أطعنا ذلك الـــنـــهـ *** ج بلا سيـــف ولا غـــمد
فمن خاف أعاديـــه *** بنا في الـــروع يستعدى[54]

أي من خاف أعاديه انتسب إلينا وادعى أنه من المكدين وبذلك ينجو ولا يتعرض له أحد [55].

والشاعران كلاهما من طائفة الأدباء السيارين الذين كانوا يسمون الساسانيين ومن المكدين المشهورين.

الأثر الفارسي:

وقد ارتبطت المقامات في موضوعها بالكدية وبطائفة الساسانيين الذين ينسبون إلى ساسان،الذي كان رجلاًفقيراً حاذقاً في الاستعطاء دقيق الحيلة في الاستجداء فنسب إليه المكدون [56].

وقيل: هو أمير من الأسرة الساسانية الفارسية المالكة، حزن لما تولت أخته الملك وحرم هو منه، فاشترى غنماً، وجعل يرعاها، ويُعيّر بأنه راعي الغنم فنسب إليه كل من احترف الكدية [57].

والكدية كانت من أول الأغراض التي حدت ببديع الزمان إلى كتابة مقاماته وأصحاب الكدية كانوا يتجولون في البلاد المختلفة والأمصار المتباعدة

يتكسبون بالأدب تارة، وتارة أخرى يحتالون على الناس بحيل ملفقة وأكاذيب مخترعة وقد أطلقوا على أنفسهم بني ساسان أو الساسانيين [58].

ويتساءل الشكعة بقوله: هل فن المقامات من أصل فارسي ؟ وقد كان بديع الزمان يتقن اللغة الفارسية، فهل كانت هناك مقامات أو قصصاً كتبت في تلك اللغة، وكانت مصدراً لبديع الزمان في مقاماته ؟ ويجيب عن هذا السؤال بقوله:((نحن نقطع بأن المقامات لم تعرف بالأدب الفارسي قبل بديع الزمان ولا في عصره أو حتى بعد قرن ونيف)) [59].

ويؤكد محمد غنيمي هلال أن المقامات في اللغة الفارسية كتبت بتأثير من مقامات الهمذاني والحريري. وهذه المقامات في اللغة الفارسية كتبها القاضي حميد الدين البلخي وحذا فيها حذو سابقيه في هذا الباب، حتى يمكن أن نعدَّ تأثره بهما من باب التقليد الذي لا جديد يذكر فيه [60].

ويقول المستشرق البريطاني براون في معرض حديثه عن مقامات حميدي: ((وضع هذه المقامات القاضي حميد الدين أبو بكر البلخي... وهي تقليد فارسي للمقامات العربية الذائعة الصيت التي وضعها بديع الزمان الهمذاني والحريري اللذان يرجع إليهما الفضل في إبداع هذا الأسلوب المصنوع والعمل على ترويجه...))[61].

وقد اعترف القاضي حميد الدين نفسه بهذه الحقيقة في مقدمة مقاماته [62] ويشهد بهذا محمد تقي بهار في كتابه: سبك شناسي يا تاريخ تطور نثر فارسي حيث يقول:((يكاد يكون من المرجح أن لفظ مقامة من اختراع البديع الهمذاني، إذ أن كل اختراع في الأدب العربي كان له صدى في الفارسية)) [63].

ويتناول المؤلف تاريخ ظهور المقامات في الأدب الفارسي، فيقول: ((وفي القرن السادس دخلت طريقة كتابة المقامات في النثر الفارسي، وأظهر مثل بذلك مقامات القاضي حميد الدين عمر بن محمد المحمودي البلخي المتوفى سنة 559 هـ)) [64]، ثم يصف هذه المقامات بقوله:((كان القاضي حميد الدين يريد أن يقلد مقامات كل من بديع الزمان والحريري ولكنه تأثر ببديع الزمان وقلده أكثر، كما يبدو من المقامة الثانية والعشرين المسماة المقامة السكباجية التي هي

نفس ترجمة وتقليد المقامة المضيرية لبديع الزمان، كما نقل عنه وقلده في مقامات أخرى))[65].

هذه شهادة رجل فارسي يعترف بأنه أول من كتب المقامات هو بديع الزمان وليس له سابق من كتاب الفرس ؛ فإذا عرفنا أخلاق الفرس وتعصبهم حتى إنهم ينسبون لأنفسهم ما ليس لهم من الكلمات العربية الكثيرة التي توجد في اللغة الفارسية حيث يزعمون أنها فارسية أصلاً والعرب هم الذين أخذوها عنهم وغير ذلك من أمور أخرى كثيرة، إذا عرفنا ذلك أمكننا أن نقدر تلك الشهادة وهذا الاعتراف ؛ وأن نخرج من ذلك جازمين بأن المقامات بوصفها الراهن هي عربية بداية وأصلاً وصناعة وإنشاءً [66].

ومما ذكرنا يتبين لنا عروبة المقامات في أصلها وأنه لم يكن للفرس يد في نشأتها بل على العكس من ذلك تماماً فإن الفرس تأثروا بالمقامات العربية – كما أسلفنا– ونسجوا على منوالها، وكانت تجربتهم فيها محدودة ولم تتجاوز القاضي حميد الدين الذي أشرنا إلى أنه أول من كتب المقامات في الأدب الفارسي. ومع ذلك كله فإننا لا ننفي أن يكون لبلاد فارس تأثير في مقامات الهمذاني والحريري تتجلى في مظاهر أخرى: فمن الملاحظ أن المجال الجغرافي الذي نشأت فيه المقامات سواء في ذلك العربية منها والفارسية كان المجال الفارسي ؛ فقد ذكر المؤرخون أن بديع الزمان الهمذاني أنشأ مقاماته في خراسان وغيرها من بلدان الهضبة الإيرانية ؛ حتى أنه أطلق على بعض مقاماته أسماء بلدان إيرانية؛ ومنها على سبيل المثال: المقامة البلخية، والمقامة السجستانية، والمقامة الأذريجبانية وغيرها.

وإلى جانب ذلك تظهر بالمقامات أثر الروح الفارسية في موضوعاتها وفي العناية بالتفنن الذي هو سمة الحضارة الفارسية،وهذا الأمر ليس مستغرباً من بديع الزمان الذي ولد وعاش في الهضبة الإيرانية وتنقل بين ديارها. وهو وإن كان من أسرة عربية كريمة استوطنت منطقة همذان في إيران ؛ إلا أنه من الطبيعي أن يظهر أثر هذه البيئة الفارسية في مقاماته.

هذا وقد تحدث محمد غنيمي هلال عن المناظرات والحوار والجدل في الأدبين العربي والفارسي في العصور الإسلامية، وعند العرب على الخصوص

؛ تلك المناظرات ذات الطابع السياسي والفقهي، وغير ذلك، ثم المناظرات ذات الطابع الأدبي المحض – وهي التي يراد بها الكشف عن وجهتي نظر في شيء واحد من جانب أدبي – فهي التي تأثرت بجنس المناظرات الفارسي في عمومه[67].

ومن هذا كله وربما غيره مما لم يذكر نشير إلى أنه ليس للفرس تأثير في نشأة المقامات العربية، وإنما أتى التأثير في الذي ذكرنا من المجال الجغرافي والروح الفارسي بعامة، وفي أثر هذه المناظرات والحوارات في مقامات الحريري في تطور لاحق على نشأة المقامات ؛ ثم ما ذكرناه سابقاً عن موضوع الكدية من حيث صلتها بالأدباء السيارين الذين كانوا يسمون باسم الساسانيين.

ولعل من أغرب ما ذكر في نشأة المقامات ما ذهب إليه المستشرق Chenery مترجم مقامات الحريري من أن أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان والهسيتوبادسا Histopadasa في اللغة السنسكريتية ثم البهلوية قد أوحت إلى بديع الزمان بفكرته [68].

ويذكر آخر أن قصص جحا في الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر في نشأة المقامة، وهذا كلام يعوزه الدليل ولا تنهض به الحجة[69] وهو أمر مستبعد جدا عندنا، وهو أشبه بزعم المستشرقين من الإسبان في بعض آرائهم عن نشأة الموشحات فأرجعها بعضهم إلى الترانيم الدينية عند اليهود[70] وكأن هؤلاء المستشرقين يرمون إلى تجريد العرب من كل فضيلة في السبق والإبداع في الفكر والأدب.

ونعود إلى أن أثر الفرس ليس في أصل نشأة المقامات وإنما من حيث صلتها بالساسانيين الذين أشير إليهم من قبل وما ذكر من انتسابهم إلى ساسان المتصل نسبه بملوك الفرس، وما ذكر من أساطير حوله وصلته بالكدية وتسمية الأدباء السياريين المكدين باسمه. وقد احتلت هذه الطائفة حيزا في الحياة الأدبية للقرن الرابع الهجري وكانوا يتخذون الأدب والشعر وما يتصل بهما من فصاحة وبلاغة وسيلة إلى كسب المال وابتزازه، وقد عرض الجاحظ في كتابه (البخلاء) لهذه الطائفة وذكر ما لديها من حيل، كما تحدث عنهم الثعالبي صاحب اليتيمة[71].

وإذا استمررنا في هذا العصر إلى عصر بديع الزمان وجدنا هذه الطائفة تتضح شخصيتها في الحياة الاجتماعية بأوسع مما كانت عليه قبل ذلك، واشتهر من شعرائها الأحنف العكبري وأبو دلف الخرزجي كما أشرنا من قبل. أما الأحنف فيقول عنه صاحب اليتيمة إنه:((شاعر المكدين وظريفهم، ومليح الجملة والتفصيل منهم)) [72]، وروى له بعقب ذلك قصيدة دالية طويلة عرض فيها لحرفة الكدية عرضاً واسعاً. وأما أبو دلف فيقول فيه صاحب اليتيمة:((شاعر كثير الملح والطرف، مشحوذ المدية في الكدية، خنق التسعين في الإطراب والاغتراب، وركوب الأسفار الصعاب، وضرب في صفحة المحراب بالجراب، في خدمة العلوم والآداب... وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده، ولما أتحفه بقصيدته التي عارض بها دالية الأحنف العكبري في ذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم، اهتز ونشط لها وتبجح بها، وتحفظها كلها وأجزل صلته عليها)) [73].

وهي قصيدة طويلة رواها صاحب اليتيمة، وفيها ذكر الأحنف الألفاظ الاصطلاحية لأهل الكدية وما كانوا يتخذون في كلامهم الذي يتكدون به من مصطلحات خاصة، كما ذكر حيلهم وتفننهم في هذه الحيل، كما سمي بديع الزمان مقامة له باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة. وكان البديع نفسه راوية لأبي دلف ؛ فقد نسب إلى أبي الفتح الإسكندري بطل مقاماته هذه الأبيات:

ويحك هذا الزمان زور *** فلا يغرنك الغرور
زوق ومخرق وكل وأطبق *** واسرق وطلبق لمن يزور
لا تلتزم حالة ولكن *** در بالليالي كما تدور[73]

وهي من شعر أبي دلف، وكل ذلك يؤكد الصلة ويوثقها بين بديع الزمان في مقاماته وبين أهل الكدية في زمنه، ومهما يكن فقد استطاع بديع الزمان أن ينفذ من نمو هذه الطائفة في عصره وما اشتهرت به من حيلها إلى صنع مقاماته[74].

ويرى شوقي ضيف أن المقامة " الرصافية " في مجموع مقامات بديع الزمان تعتبر من بعض الوجوه نثراً لقصيدة أبي دلف المذكورة [75]. ويقول د. محمد عبد المنعم خفاجي مؤلف كتاب: ((أبو دلف الخزرجي)) أنه توصل فيه إلى نتيجة أدبية خطيرة نسيها تاريخنا الأدبي، وهي أن أبا الفتح الإسكندري

الذي ينسب بديع الزمان إليه إنشاء مقاماته هو نفسه شخص أبي دلف الخرزجي[76]. ويقول في موضع آخر من كتابه: ((ورأي الذي أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شحصية تاريخية معروفة في عصر البديع، وهو أبو دلف الخرزجي وحده. وهذا الرأي لا يسبقني فيه باحث،وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب في القرن الرابع))[77].

ويستدل خفاجي على رأيه هذا بما قاله الثعالبي في يتيمة الدهر قال الثعالبي: أنشدني بديع الزمان لأبي دلف، ونسبه في بعض المقامات إلى أبي الفتح الإسكندري.

ويحك هذا الزمان زور *** فلا يغرنك الغرور

لا تلتزم حالة ولكن *** در باللياليي كما تدور[78]

وقد ورد هذا الشعر في المقامة القريضية إحدى مقامات البديع ومن هذا النص استنتج خفاجي الحقائق الآتية:

1-أنشد البديع الثعالبي شعراً لأبي دلف.

2- وهذا الشعر نفسه نسبه البديع في مقاماته إلى أبي الفتح، فتكون النتيجة هي أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع.

3- كان البديع راوية لشعر أبي دلف، ويبدو أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم [79].

وعليه فسيكون أمامنا - كما يرى خفاجة - رأي جديد نجزم به، وهو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلاً للمقامات وكنى عنه بأبي الفتح، وكان أبو دلف أروع نموذج ساساني يصلح بطلاً للمقامات، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذي صوره البديع في المقامات في شخص أبي الفتح الإسكندري، ولأن شهرة وتجارب أبي دلف كانت تصلح معيناً يستقي منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح ؛ وذلك ما قد كان.

ويضيف خفاجي إلى ذلك أن البديع الهمذاني حين سمع قصص أبي دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه في البلاد، واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره في مجالس الملوك والأمراء والوزراء رأى أن هذه الصورة

الفنية تصلح أساساً لفن جديد ابتكره وسماه " المقامة " فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكي بابتكار فن المقامة في الأدب العربي، في القرن الرابع وفي عصر أبي دلف [80].

وقد كان بديع الزمان الهمذاني وثيق الصلة بأبي دلف وواقفاً على أخباره وراوية لشعره، وفي اليتيمة مما يدل على ذلك [81].

وكانت شخصية أبي دلف ملء سمع البديع وبصره، ورحلاته وتطوافه في الأرض موضع عجبه واستظرافه، كما كانت شيخوخة أبي دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة، وتنقله بين الغنى والفقر، وحرفته الساسانية وهو علم فيها.. كان ذلك كله موضع تأمل البديع وتعجبه، لذلك فإن البديع حين كتب مقاماته اتخذ من أبي دلف وحياته وشخصيته بطلاً للمقامات التي أبدعها، ورمز إليه باسم أبي الفتح الإسكندري.

ويرى خفاجي أن جميع ما صور به البديع بطل مقاماته أبا الفتح الإسكندري تنطبق على أبي دلف تمام الانطباق ؛ فهو خطيب وبليغ وشاعر، وهو جوالة في الآفاق،وهو يحترف الساسانية تظرفاً ودعابة وحلو فكاهة [82].

وقول خفاجي إنه لم يسبقه باحث في أن أبا الفتح الأسكندري هو أبو دلف الخزرجي ؛ هذا السبق فيه نظر إذ أن محمد غنيمي هلال قد سبقت الإشارة إلى قوله أن أبا دلف الخزرجي يعد صورة نفسية واضحة لبطل مقامات بديع الزمان ((أبي الفتح الإسكندري)) وأن قصيدة أبي دلف الرائية التي تسمى "القصيدة الساسانية" قد أمدت بديع الزمان بالمادة الغفل لأكثر مقاماته [83].

ويذهب باحث آخر إلى أن الكدية أو الساسانية التي كانت صناعة أبي الفتح ((نجد من أعلامها في عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة: كأبي الحجاج (ت391هـ)، وابن سكرة (ت385هـ)، وأبي الورد ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبي حيان التوحيدي، بل البديع نفسه، ومن يشبهه كل الشبه كأبي دلف والأحنف العكبري)) [84].

ومع ذلك فإن خفاجي قد يكون له فضل السبق من حيث تحديده القاطع بأن أبا الفتح الإسكندري هو أبو دلف الخزرجي قولاً واحداً.

ولعلنا في بحثنا عن أصول ونشأة المقامات والمصادر التي استقى منها بديع الزمان؛ نخرج بما يمكن أن يكون نظرة عامة تكشف لنا عن جلية الأمر. والذي يمكن أن نطمئن إليه هو ما ذهب إليه أحد الباحثين ومن تبعه من أن نشأة المقامات قد ارتبطت في الأدب العربي بفساد كل من الحياتين الاجتماعية والأدبية؛ ففي خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وما تلاه سيطر البويهيون على إيران ومركز الخلافة الإسلامية في بغداد، وأدى ذلك إلى تفتت الدولة الإسلامية الموحدة وظهور دويلات متعددة في شرق إيران وفي الشام ومصر، وغير ذلك من أمصار العالم الإسلامي. وقد نتج عن هذا الانقسام وذلك التفتت وجود جماعات حاكمة متمتعة بكل الحقوق، في مقابل كثرة كادحة، وأصبح لزاماً على الأدباء المتطلعين إلى حياة كريمة الاتصال بالحكام والأمراء مادحين إياهم أملاً في العطايا والهبات.

وما دام الأدب أصبح وسيلة للتكسب فلم يكن مستغرباً أن تظهر جماعة من العامة تتخذ من الأدب وسيلتهم إلى التسول أحياناً، والنصب في أحايين أخرى[85].

وهكذا دارت المقامات حول موضوع "الكدية" كأثر من آثار الاضطراب الاجتماعي والسياسي الذي ساد العالم الإسلامي في ذلك الوقت. وقد واكب هذا الاضطراب الاجتماعي اضطراب آخر ساعد على انتشار هذا الجنس الأدبي وأعني به اضطراب الحياة الأدبية، واهتمام كل أديب بإظهار التفوق على الآخرين في مجال الصنعة والإكثار من المحسنات اللفظية والمعنوية، وقد أشار الحريري إلى هذا الاضطراب في الحياة الأدبية في مقدمة مقاماته – مما ذكرناه سابقاً – حيث يقول:((فإنه جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان رحمه الله تعالى...)) [86]

وهكذا كانت نشأة المقامات معبرة عن روح العصر وذوق الناس وعنايتهم بالزخارف اللفظية، ولذا كان القصد الأول من مقامات بديع الزمان ومن بعده الحريري – الإتيان بمجاميع من الألفاظ والأساليب التي تخلب السامعين وتخترق بروعتها حجاب قلوبهم... ومن أجل ذلك اختار البديع صيغ السجع

لمقاماته، وكانت هذه هي الصيغ التي يعجب بها عصره، ولذا كان الأصل في مقامات بديع الزمان الهمذاني أن يسجع ولا يترك السجع إلا نادراً [87].

نخرج من كل الذي ذكرناه أن فكرة إنشاء المقاومات عند بديع الزمان قد تبلورت في مخيلته نتيجة لمؤثرات عدة، منها هيكل الحديث عند ابن دريد الذي أنشأ الأحاديث للتعليم؛ فأخذ بديع الزمان الفكرة وهذبها وأدخل عليها عناصر الحياة والحركة والمفاجأة وجعلها من أسس فن المقامة. أضف إلى هذا تأثره بالأمثال العربية وما اشتملت عليه من قصص، ثم الكدية وانتشارها، وغير ذلك من ملابسات اجتمعت كلها في ذهن البديع ودفعته إلى صناعة المقامات على الشكل المعروف [88].

ويضيف محمد عبد المنعم خفاجي أن هذه القصة الحوارية القصيرة، ذات المنهج الفني الملتزم، والصياغة الطريفة، والصيغة الجديدة، والفكرة الساسانية التي دعيت مقامة، قد أنشأها بديع الزمان الهمذاني، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة في عصره[89].

هوامش البحث و مصادره:

القران الكريم
(1) ابن منظور: لسان العرب ط1 دار صادر للطباعة والنشر د.ت المجلد الثاني عشر مادة "قوم " ص 1487 والفيروز آبادي ؛ القاموس المحيط ط2، مؤسسة الرسالة.
(2) زهير بن أبي سلمى: ديوانه، طبع دار الكتب ص 113، وضيف (د.شوقي) المقامة ط4 دار المعارف بمصر 1954م ص7.
(3) ضيف (د.شوقي) مرجع سابق المقامة ص7.
(4) مرتاض (د. عبد الملك): فن المقامات في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980م، ص12.
(5) الشنطي (د. محمد صالح):في الأدب العربي القديم العصر العباسي والأندلسي ط2، دار الأندلس للنشر والتوزيع حائل المملكة العربية السعودية 1417هـ - 1997م، المجلد الثاني:، ص146.
(6) الجاحظ: البخلاء ، تحقيق د. طه الحاجري، ط7، دار المعارف بمصر (د.ت) ص218.
(7) المسعودي:مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط4 مطبعة السعادة بمصر 1384 هـ - 1964م ص 421.
(8) الشكعة (د. مصطفى): بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، دار الرائد العربي، بيروت لبنان 1971م، ص 292.
(9) الأصفهاني ، أبو الفرج: الأغاني دار الكتب المصرية ج2 ص32.
(10) الشكعة: مرجع سابق ص292.
(11) ابن عبد ربه: العقد الفريد: شرح أحمد أمين وإبراهيم الأبياري وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1368هـ - 1949م ج 1 ص286.
(12) سورة الإسراء آية رقم 79.
(13) الخوارزمي: رسائل الخوارزمي طبع القاهرة ص80.
(14) الشريشي: شرح مقامات الحريري طبع بولاق مصر، ص10.

(15) الهمذاني، بديع الزمان، مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده تقديم جمال الغيطاني، المقامة الوعظية ص128.

(16) T. chenery Assemblies of Hariri , London, p2.
الشكعة: مرجع سابق ص 291- 294.

(17) القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، طبع دار الكتب المصرية نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر (د.ت) ج 14 ص 10.

(18) ضيف (د. شوقي):مرجع سابق ص7.

(19) جمعة (د. محمد بديع): دراسات في الأدب المقارن ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1980م ص 226.

(20) حور (د. محمد إبراهيم) وآخرون: في الأدب والنقد واللغة، مكتبة الفلاح، الكويت 1406هـ - 1986م ص164.

(21) وهبة (مجدي) معجم المصطلحات العربية وكالة المهندسين مكتبة لبنان 1979م في اللغة والأدب ص27.

(22) محمد (د. محمد سعيد): دراسات في الأدب الأندلسي، منشورات جامعة سبها، ليبيا، 2001 م، ص300.

(23) جمعة:مرجع سابق ص226.

(24) حور وآخرون:مرجع سابق ص164.

(25) أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن بشر الحموي (ياقوت): إرشاد الأريب معجم الأدباء إلى معرفة الأديب دار المأمون مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه مصر (د.ت) ج2 ص 161 ، 385-398هـ.

(26) هلال (د. محمد غنيمي): الأدب المقارن دار العودة بيروت 1983م، ص244، وكتابه النقد الأدبي الحديث نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة 1979م، ص496، وأنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ط2 ، دار العلم للملايين، بيروت 1978 م ص68.

(27) الشريشي: شرح مقامات الحريري، ص5

(28) جمعة: مرجع سابق ص 233، وإدوارد براون تاريخ الأدب في إيران "الترجمة العربية" ج2 ص128، 456 نقلا عن جمعة مرجع سابق ص233.
(29) ضيف (د.شوقي): مرجع سابق ص 5.
(30) عبود (مارون): بديع الزمان الهمذاني سلسلة نوابغ الفكر العربي ط4، دار المعارف بمصر ص24، و المبارك (د. مازن): مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته، مقال في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجلد 43 لسنة 1970م ج1 ص 16.
(31) القيرواني (الحصري): زهر الآداب وثمرة الألباب، دار الفكر العربي القاهرة 1969م ج 12 ص235.
(32) مبارك (د. زكي): النثر الفني في القرن الرابع الهجري ج1 ص 189، 206.
(33) بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربي، دار المعارف مصر 1968م، ج2 ص112.
(34) جبران (د.محمد مسعود) فنون النثر في آثار لسان الدين بن الخطيب، ص453.
(35) جمعة (د. محمد بديع): مرجع سابق ص236.
(36) نفسه والصفحة نفسها.
(37) ضيف (د. شوقي): الفن ومذاهبه في النثر العربي ط7 دار المعارف بمصر 1971م ص248.
(38) الشنطي (د.محمد صالح): في الأدب العربي الحديث ط1، دار الأندلس للنشر والتوزيع حائل المملكة العربية السعودية 1413 هـ - 1992م ص 272.
(39) مبارك (د. ذكي) : مرجع سابق ص201 والشكعة (د.مصطفى) مرجع سابق ص296.
(40) الشكعة:مرجع ص296- 297.

(41) المقدسي (أنيس): الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين بيروت ط2 آذار مارس 1978 م ص68.
(42) محمد (د. محمد سعيد): دراسات في الأدب الأندلسي ط1 جامعة سبها 2001م، ص299.
(43) مرتاض (د.عبد الملك) مرجع سابق، ص 12 وما بعدها.
(44) الشنطي (د. محمد صالح): في الأدب العربي القديم(العصر العباسي والأندلسي) دار الأندلس للنشر والتوزيع ط2 حائل المملكة العربية السعودية 1417 هـ - 1997م ص147والمراجع التي ذكرها.
(45) الغيطاني (جمال): مقدمة لشرح مقامات بديع الزمان للشيخ محمد عبده، مؤسسة أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات (د0ت) ص ح.
(46) الداية (د.محمد رضوان) وآخرون: اللغة العربية دراسات وتطبيقات ط1 مكتبة المكتبة الوطنية أبو ظبي – العين 1402هـ - 1982م، ص 143.
(47) جمعة (د.بديع محمد): مرجع سابق ص227، والمرجع الذي ذكره.
(48) جبران (د. محمد مسعود): فنون النثر في آثار لسان الدين بن الخطيب دار المدار الإسلامي الطبعة الأولى بيروت لبنان، ص453-454.
(49) نفسه ص 455.
(50) هلال (د.محمد غنيمي): الأدب المقارن دار العودة بيروت 1983م، ص244، والهمذاني (بديع الزمان): مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده، تقديم: جمال الغيظاني، مؤسسة الرسالة أخبار اليوم إدارة الكتب والمكتبات، المقامة القريضية ص1.
(51) الثعالبي: يتيمة الدهر، القاهرة 1934م ج3 ص321 - 323.
(52) هلال مرجع سابق ص، 225، 226.
(53) الثعالبي: مصدر سابق ج 3 ص117 وما بعدها.
(54) د. مصطفى الشكعة مصدر سابق ص 313.

(55) خفاجي (د.محمد عبد المنعم) أبو دلف الخزرجي عبقري من ينبع ط2 سلسلة المكتبة الصغيرة إصدارات الشيخ عبد العزيز الرفاعي مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، الرياض 1393هـ - 1973م ص84.
(56) نفسه ص 83.
(57) الشكعة: مرجع سابق ص305.
(58) نفسه ص300.
(59) هلال (د. محمد غنيمي):مرجع سابق ص 338.
(60) براون إدوارد: تاريخ الأدب في إيران (الترجمة العربية) ج2 ص439 نقلاً عن جمعة (د.محمد بديع) مرجع سابق ص244.
(61) جمعة (د. محمد بديع): مرجع سابق ص224.
(62) خفاجي مرجع سابق ص94.
(63) الشكعة:مرجع سابق ص300.
(64) الشكعة: مرجع سابق ص301، وجمعة مرجع سابق ص223.
(65) الشكعة: مرجع سابق ص 306.
(66) هلال (د. محمد غنيمي):مرجع سابق ص261-262.
(67) شينري مترجم مقامات الحريري ص23 نقلاً عن الشكعة مرجع سابق ص302.
(68) خفاجي: مرجع سابق ص93.
(69) هيكل (د. أحمد): الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ط9 دار المعارف مصر، 1985م ص149.
(70) الثعالبي: مصدر سابق ج3 ص104 وما بعدها، والجاحظ: البخلاء ج1ص86.
(71) الثعالبي مصدر سابق ج1 ص 86.
(72) نفسه ج 3 ص323 – 342، (73) والهمذاني مقامات بديع الزمان شرح الشيخ محمد عبده ص1.
(73) ضيف (د. شوقي): الفن ومذاهبه في النثر العربي مرجع سابق، ص 249 – 250، والثعالبي: مرجع سابق ج3 ص321، 323، 324.